المقدمة

١ ـ الحمد لله الذي كتب على نفسه الرحمة لعباده ، تفضلا منه واحسانا • وأقام لهم من شريعته فرقانا بين مطارح الشهوات والأهواء الجانحة ، والمسالك الى مصالحهم الفطرية النافعة • فحذرهم من الانزلاق في الأولى وهداهم الى اتباع مسالك الأخرى • وأمرهم أن يبتغوا بذلك كله الدار الآخرة وأن يمحضوا قصدهم الى مرضاة الله وحده ، حتى يتحقق فيهم التعبد لله اختيارا ، كما تحققت فيهم صفة العبودية له إجبارا •

وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وأسأله سبحانه وتعالى أن ينير أمامي السبيل الى ما أنا بصدده ، بقبس من هديه ونفحة من توفيقه ، حتى لا أتنكب عن حق وأزيغ الى باطل ، وأن يزودني في طريقي هذا بنية خالصة لوجهه ، وقصد لايهدف الى غير مرضاته ، حتى لايضل سعيي هباء ولا يضيع جهدي بددا • فما أعظمها تجارة رابحة كل عمل قام على أساس من قصد وجه الله وحده ، وما أضيعها صفقة خاسرة كل سعي استهدف غير ذلك من زخرف الدنيا وزينتها •

٢ ـ وبعد فقد بات مما لا شك فيه ان المسلمين لم ينالوا ما نالوه من شرف وعز ، إلا بفضل استمساكهم بالاسلام ، ولم يصابوا بعد ذلك بما

أصيبوا به من ضيعة وشتات إلا بسبب تهاونهم فيه واهمالهم له • ولذا كان هذا الدين ـ ولا يـزال ـ أخطر خصم في نظر أعدائهم ، اذ وجهوا حراب عدوانهم اليه ، ونفثوا كمين حقدهم عليه ، وأرادوا القضاء على المسلمين من حيث القضاء على دينهم ، وسعوا الى اقتحام أرضهم وأوطانهم بواسطة السعي الى فتح الثقوب والثغور في حصن اسلامهم •

ولو أنهم قصدوا الى هذا الحصن من بابه ، ودخلوه دخول المستبصر لحقائقه ، لوسعهم رحبه ولشملهم إسعاده ، ولكنهم تكبروا عن الانضواء تحت سلطانه ، طائعين ، وكبر عليهم أن يمسك المسلمون من دونهم بزمام النصر وأن يتربعوا دونهم على أريكة المجد فلم يكن منهم الا الدخول في حرب حاقدة ضدهم على امتداد التاريخ طولا وعرضا •

٣ ـ ولقد تطورت مظاهر هذه الحرب ، على ضوء ما وصلوا إليه من حصاد التجارب والمغامرات •

فكان أول مظهر من مظاهرها ، هو حرب الغزو بالسلاح ، ولقد راحت حلقات هذه الحرب تتصل وتتوالى إلى أن انتهت بآخر موقعة من مواقع الحروب الصليبية الكبرى • وكان حصاد هذه المغامرات غير مشرف للكافرين ، وكانت النتائج ـ في مجموعها ـ نصرا وتوفيقا للمسلمين •

ولقد مكنت الحروب الصليبية أصحابهـا الصليبيـين أن يحتكـوا بالمسلمين قدرا لم يكن قد أتيح لهم مـن قبل ، وأن يتبصروا مبادئهـم وأخلاقهم لأول مرة عن كثب • فأكد لهم ذلك ـ الى جانب تجاربهـم الفاشلة من قبل ـ أن المسلمين لايمكن أن يؤتوا من قبل الغزو بالسلاح مهما توفرت وسائله ، وأنهم إن كانوا سيُغلبون ولابد فان ذلك لن يكون الا بواسطة افساد دينهم عليهم وابعادهم عن مبادئهم ومعتقداتهم •

٤ ـ فكان ذلك بداية طور جديد في حربهم للمسلمين • وكـان

الطور الجديد هو بث الزيغ الفكري في العقيدة الاسلامية بوسائل مدروسة كثيرة ، من أهمها وسيلة الاستشراق والتبشير ، ولقد بدأت تجربتهم الأولى في ذلك بظهور أول مبشر في التاريخ الاسلامي ، اثر فشل الحروب الصليبية ، هو الاسباني المعروف « ريمون لول » • ثم أخذت هذه التجربة تتوالى مع الزمن في كل صقع من أصقاع العالم الاسلامي ، يرصدون لذلك الأموال الطائلة ، ويحشدون له جندا من الرجال والنساء ، ويبتغون الوسيلة الى مآربهم الخسيسة بفنون من المذاهب والألاعيب ، وما مأربهم إلا تشكيك المسلمين بدينهم • ثم بث سموم الالحاد في أفكارهم •

ولكنهم عادوا من هذا السعي أيضا خائبين ! •••

بل انهم شعروا أنهم يمكنون الاسلام في افئدة أربابه من حيث يريدون زعزعته واجتثاث جذوره ، لقد انفقوا أموالا طائلة ، وجندوا حشوداً بالغة في سبيل تنصير المسلمين أو الحادهم أو تشكيكهم ، تغلغلوا من أجل ذلك في مجاهل أفريقية والاصقاع النائية من آسيا وكل بلد فيه للمسلمين ظل واسم ـ ولكنهم مع ذلك لم يفتنوا عن دينهم الا فئة قليلة كانت هي التي تسعى الى من يضل بها عن محجة الاسلام وهديه ، وهي بعينها الحفنة التي يمتد وجودها منذ فجر التاريخ الاسلامي الى يومنا هذا في خط متستر متعرج ، فليس خطرها بالخطر الجديد ، وليس الحديث عنها حديث هذا العصر وحده • على أن خطرهم ، طوال هذه القرون التي خلت ، لم يتجاوز الى أحد سواهم ، ووباءهم لم ينتشر الا فيما بينهم • فلم يستطع أحد منهم أن يغير من الاسلام حرفا ، أو أن ينال منه بأي لون من ألوان التحريف ، أو أن يكدر شيئا من صفائه ونصاعة براهينه وحججه ، ولم يكن كيدهم كله الا زبدا طافيا مالبث أن تبدد وانحسر لتظهر من تحته محجة هذا الدين وهي أتم ما تكون صفاء وقوة واشراقا •

وصدق الله اذ يقول : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » •

لم تغن إذاً وسيلة التبشير والحرب الفكرية عن أربابها شيئا • بل ولقد أثاروا بفتنتهم هذه ردود فعل لدى المسلمين نبهتهم الى مدى أهمية دينهم ، وذلك من خلال ظهور مبلغ ما يضحي به أعداؤه من مال وعتاد ورجال في سبيل القضاء عليه ، فأيقنوا بذلك أن إسلامهم هذا هو أخطر سلاح يقض مضاجع أعدائهم ، دونه كل ما قد يتمتعون به من ثروة وقوة وسلاح • فكان هذا سببا طبيعيا لحمل المسلمين على مزيد من التمسك باسلامهم وعقيدتهم ، والاعتزاز بهما في وجوه أعدائهم ، حتى بات كثير من الفاسقين الذين قد يفرطون في أمر دينهم بين اخوانهم المسلمين ، ينقلون الى حال شديدة من الحماس له والدعوة اليه إذا ما وجدوا أنفسهم أمام أحد من أعدائهم الكافرين •

٥ ـ من أجل هذا كان لابد لأعداء الاسلام من أن يتلاقوا في نواديهم ومؤتمراتهم ، ليقدحوا الفكر في استخراج وسيلة جديدة لحرب الاسلام •

فما هي الوسيلة الجديدة ؟

الوسيلة الجديدة التي التقى عليها هذه المرة جميع أعداء الاسلام في الشرق والغرب على السواء ـ هي ارتداء رداء الاسلام نفسه ، ثم التسلل اليه من أسهل أبوابه ، والعمل على هدمه والقضاء عليه وتضييع معالمه باسلحته نفسها • فذلك أبعد عن أعين الرقباء ، وأجدر أن لا يثير في المسلمين ردود الفعل والغيظ ، وهم واجدون في كل وقت بين المسلمين من يساعدهم في تمثيل الادوار والتلبيس على المسلمين بمسوح الدين وتجديده والغيرة عليه •

٦ ـ ولقد بدأت فعلا تجربة هذه الوسيلة منذ سنوات عديدة ، وأخذت

جهود أعداء المسلمين ـ في الشرق والغرب على السواء ـ تتناسق للتعاون فيما بينهم بغية اجتناء ثمراتها في أقرب حين ٠

فقد أختفت ـ أو كادت تختفي ـ تلك الأصوات والأقلام التي طالما كانت تنفث سموم الالحاد والتشكيك بالاسلام جهارا ، وتدعو صراحة للانفلات من قيوده والتحلل من ربقته [1] ٠ثم ما لبثتأن أخذتتظهر وعليها سيما التدين ومن حولها هالة الايمان والطهر وراحت تبدي الاعجاب بالاسلام ونظامه ، وتظهر الغيرة على جوهره الصافي مما قد علق به وتزعم الخوف عليه من كثير منأربابه الجاهلين لروحه الجامدينعند نصوصه !!٠٠

وأخذ أرباب هذه الاصوات والأقلام ، يتسللون الى حقائقه عن طريق أسهل باب من أبوابه ، وهو باب الاجتهاد والرأي ، ثم وضعوا أيديهم على أخطر سلاح من أسلحته وهو سلاح المصالح طبق المخطط المرسوم ٠

قالوا ان الشارع فتح أمام المسلمين باب الاجتهاد والرأي في شؤون دينهم ، فلا ينبغي أن نغلق باباً فتحه الله أمامنا للولوج فيه ٠ ثم قالوا :

---

(١) فمثلا بعد أنَ كان قادة الشيوعية في العالم ، لايكفون عن الهجوم الصريح القاسي على الاديان عامة والاسلام خاصة ، أخذوا اليوم يتواصون بالاقلاع عن ذلك ، لاسيما بالنسبة للاسلام ، وذلك طمعا في نيل فائدة أكثر عن هذا الطريق ٠

ولقد تجلت هذه الفكرة في وصية توليياتي الزعيم السابق للحزب الشيوعي الايطالي كما تجلت في مقالات كثيرة أخذت تظهر في مختلف الصحف الشيوعية ، من ذلك ما نشرته مجلة « اكونومست » الشيوعية في أوائل شهر ١٩٦٥/١ من الدعوة الى تكتيك جديد تجاه الاديان عامة والاسلام خاصة ، وهو التخفيف من معاداته وذلك للاستفادة من الدين والمتدينيين لصالح الشيوعية ٠

وقد جعل الله مبدأ المصالح والمفاسد أساسا لشريعته ، ومنارا للكشف عن حقيقة أحكامه • فحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله ، فلا ينبغي أن نجمد أمام النصوص والفتاوى القديمة ونتجاهل تطور الزمن ومصالح العصر الحديثة •

ثم راحوا يفسحون الطريق الينا أمام كل ماتسفيه علينا رياح الغرب والشرق من المفاسد والموبقات التي توهموها مصالح وأسبابا للرقي ، قائلين : هذه كلها مصالح • واستداروا الى فقه الاسلام وأصوله فقالوا : والمصالح معتبرة في الاسلام • ثم جمعوا المقدمتين إلى بعضهما برباط غير شرعي ، واستولدوا منهما نتيجة من سفاح فقالوا : إن مدنية الغرب بأوضارها ، ونظم الشرق بماديتها وفسادها معتبرة في الاسلام !! •••

وليس هدفهم اجتهاداً في الاسلام ولا تبينا للمصالح المرعية فيه ، وانما الهدف ـ بعد أن تعذر هدم الاسلام بكل من الوسيلتين السابقتين ـ هو التلصص الى داخله ، وتفريغه من عامة مبادئه وحقائقه ، ثم حشوه بكل ما يراد جلبه الى المسلمين من النظم والاخلاق والقوانين الفاسدة ، لكي تقدم الى عامة المسلمين وهي مخبوءة في إهاب الاسلام مكسوة بثيابه وشاراته ، فتجد بذلك منهم حسن الاستقبال والترحيب ، حتى إذا استقرت فيما بينهم واطمأنت الى مكانها من أرضهم ، مزّقوا الاهاب المخبوءة فيه وألقوا القناع والشارات المزورة بها ، وخرجوا على المسلمين بحقيقتها العارية • فيومئذ تنفجر الصليبية الحاقدة ، بعد صبر طويل ، بقهقهة عريضة شامتة فرحاً بنجاح أسباب المكيدة في القضاء على المسلمين بالقضاء على دينهم •

ولقد كان مما سهل لهم سلوك هذه السبيل ، ما تفعله اليوم وسائل الاعلام المرئية والمسموعة وأدوات النقل الحديثة ، فلقد جعلت هذه الوسائل من الدنيا الشاسعة الأطراف ، شيئاً أشبه ما يكون ببلدة واحدة

صغيرة ! .. اذ لا تكاد تظهر فكرة في أقصى الغرب إلا وتجد صداها قد وصل لتوّه إلى أقصى الشرق ؛ ولا يكاد ينبع مذهب من المذاهب في أقصى الشمال ، الا وتجد التعليقات عليه في أقصى الجنوب . فلقد انتهى – تقريباً – ذلك العصر الذي كان للبيئة فيه سلطان على الناس ، وأصبحت الدنيا كلها بيئة واحدة تصطرع في كل شبر منها شتى المذاهب والعادات الآراء .

٧ – لا جرم أن هذه أمكر وسيلة الى تحقيق ما عجز أعداء الاسلام عن تحقيقه طيلة القرون السالفة ، لما تعتمد عليه من اللصوصية والمخادعة واستخدام فنون المصانعة والتلبيس . ولذلك كان على المسلمين أن يضاعفوا الجهد حيال هذه الحرب الخبيثة الماكرة ، وهو جهد يقع أهم أعبائه على علماء المسلمين ومفكريهم .

وانه جهد لا يكلفهم حملا للسلاح ولاتضحية بالروح ، أو الضروري من المال ، ولكنه يقتضيهم إخلاصا في البيان وصراحة في القول . وحفظاً لما ائتمنهم الله عليه من أمانة الدين الموضوعة في اعناقهم ، ورجوعا الى الأصول والموازين التي وضعها الشارع بين أيديهم ليستعملوها في تمحيص الأمور وفهم الحقائق وازالة أسباب التمويه والزيف .

٨ – ومن أهم ما تمتاز به هذه الشريعة الغراء ، أنها واضحة السبيل ، دقيقة الأصول والموازين ، فليس في قواعدها وأحكامها أي متسع للتلاعب أو التزييف ، اللهم الا اذا تقاعس العلماء عن حمل الأمانة ، أو فقدوا من تقوى الله والاخلاص لدينه ما يحملهم على بيان الحق دون تكلف ولا مصانعة . وتركوا السبيل مفتوحا للمتلاعبين والحاقدين والمتربصين . فمردّ المشكلة حينئذ الى موقف المسلمين من دينهم ونبذهم المسئولية وراء ظهورهم . أما شريعة الاسلام نفسها فليس فيها (على أي حال) أي باب أو ثغرة تدع مجالا لخوض الخائضين أو عبث العابثين .

٩ ـ فصحيح أن الشريعة فتحت باب الاجتهاد فيما لا نص فيه ، ولكنها قيدت الاجتهاد بشروطه المعروفة التي يجب أن تتوفر فيمن نصب نفسه للبحث والاجتهاد ، وإلا فهو اجتهاد باطل يضرب به عرض الحائط .

وصحيح أن الشارع راعى في أحكامه مصالح العباد . ولكن ما هي المصالح ؟ أهي تلك المذاهب والآراء المضطربة المتناقضة التي تاه في غمارها أرباب علم الفلسفة والاخلاق ، ثم لم يصلوا من بحثهم الى شيء سوى الاتفاق على أن مصلحة كل انسان ما يهديه اليه مزاجه وعقله ، وأن مثله الأعلى ما يخيله اليه رأيه وفكره ؟ أم هي تلك العادات والمذاهب التي تنزحها أمم الغرب والشرق من مستنقعات الشهوات والأهواء الآسنة ، ثم يروجها عندنا عبيد ترسف عقولهم في أغلال من تلك الشهوات والأهواء ؟ وهل يتصور عاقل أن الله عز وجل انما بعث رسله ونزل شرائعه لا لشيء سوى أن تفسح الطريق وتعبده لوساوس الفلاسفة أو المقننين أو عبيد الشهوات والأهواء وتجعل منها أحكاما الهية منزلة الى العباد ؟

إن المصالح في الشريعة الاسلامية منضبطة ومحدودة من جميع أطرافها ، بما لا يدع مثقال ذرة من مجال للاضطراب أو الغموض في فهمها ، ومرتبة في أنواعها ترتيبا لا يترك أي مجال للتناقض أو التداخل فيما بينها ، ومتفرعة من أصل راسخ متين مستقر ثابت في قلب كل مؤمن صادق ، ألا وهو العبودية لله عز وجل ، أصل يتأسس على مبدأ من قوله عز وجل : « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » . فأنى لوسائل التلاعب والعبث أن تتسلل إليها وهي منضبطة من حيث الأساس الذي تقوم عليه ، ومن حيث الفروع التي تشملها ، ومن حيث الترتيب الدقيق فيما بين أنواعها ؟

وصحيح كما يقولون أن هذه الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وذلك برهان من براهين عظمتها وكونها وحيا من الله عز وجل . ولكن

من قال ان معنى صلاحيتها هذه أن تتبدل وتتطور مع كل الآراء والأهواء ؟ وأي معنى يبقى لعظمتها وقدسيتها اذا كان هذا هو معنى بقائها وصلاحها ، الا ترى أن أي طالب حقوقي يستطيع أن يضع مسوّدة قانون يسير مع تطورات الازمنة والقوانين على هذا المعنى ، وذلك عن طريق مادة واحدة ، يربط بواسطتها المعنى المراد له بما تتطور اليه مذاهب الناس وأراؤهم في المستقبل • فأي عظمة أو براعة في هذا ؟

١٠ – ومكان الخطأ في فهم هذه الكلمة ، أنهم يحيلون تقدير مابه يكون الصلاح والفساد الى الناس أنفسهم ، فاذا حسب الناس ان التعامل بالربا مثلا قد بات من مصالح الناس ، فهو في نظرهم مصلحة حقيقية اذاً ، وعلى الشريعة بما التزمته من تحقيق مصالح الناس أن تتسع لقبول هـذا الحكم واعتباره •

غير أن الحقيقة هي أن تقدير مابه يكون الصلاح والفساد عائد الى الشريعة نفسها ، ولقد وضعت الشريعة الأسس العامة لهذه المصالح في بيان لايلحقه أي نسخ أو تبديل ، وأجملته في خمسة مقاصـد هي : حفظ الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسل ، والمال ، طبق هذا الترتيب فيما بينها • كما أرشدت الى الأدلة والعلائم التفصيلية لها بما لا يقبل أي تأويل أو تغيير وهي أن لاتخالف جزئياتها نصوص الكتاب أو السنـة أو القياس الصحيح •

وبناء على ذلك فان كل ما توهمه الناس مصلحة ، مما يخالف تلك الاسس العامة في جوهرها أو الترتيب فيما بينها ، أو يخالف دليلا مـن الأدلة المذكورة ، فهو ليس من المصلحة في شيء وان توهم متوهم ذلك •

١١ – ومن أطراف نتائج هذه الخطيئة عند أربابها ، أنهم يفرضون ضرورة بقاء كل شر أو مفسدة فرضت نفسها أو فرضها الناس فيما بيننا

باسم المصلحة ، ثم يطالبون الاسلام بحل المشكلة على أساس الاعتراف والقبول ، وإلا فانه ليس كما يقال : صالحاً لكل زمان ومكان • أي أن للناس أن يرتبوا شئون المجتمع طبق ما تمليه عليهم الأهواء ، ثم على الشريعة أن توقع عليها بالقبول والرضى •

١٢ ـ فهذا الطور الجديد الذي بدأه أعداء المسلمين في حرب الاسلام ، وهذه المسئولية التي يتحملها المسلمون اليوم لصد هذه الحرب والكشف عنها جعلاني منذ فترة بعيدة من الزمن ، أفكر في دراسة موضوع « ضوابط المصلحة في الشريعة الاسلامية » ، ونشره في كتاب ، أملاً في القيام بجزء من المسئولية الملقاة في عنق كل مسلم ، تجاه ما نراه من هذا الكيد الخفي المتلصص في مختلف ربوع عالمنا الاسلامي •

ولقد كنت كلما قرأت أو سمعت رأيا يدعو للاجتهاد في هذا العصر وتحكيم المصالح في فهم الشريعة ، أشعر بسؤال ملحٍّ يقفز الى خاطري قائلا :

ولكن ما هي ضوابط المصلحة التي يدندنون حولها ؟ واذا كان من واجب العلماء اليوم الاجتهاد في الاحكام مرة ، أفلا يكون من الواجب عليهم قبل ذلك مائة مرة الانكباب على الاجتهاد في فهم حقيقة المصالح الشرعية وحدودها وضوابطها وأسسها ؟ وكيف يصح لانسان أن يدفع نفسه للمسير فوق أرض منحدرة من الجليد الأملس ، دون أن يمسك بما يحفظ عليه سلامة المسير وأن يحدد أمامه معالم الطريق ؟

١٣ ـ ولما أنجزت الدبلومات الدراسية في قسم الدراسات العليا بجامعة الأزهر ، وكان عليَّ أن أختار بحثا أكتب فيه كي أنال به درجة الاستاذية في الفقه وأصوله لم يطل بي البحث والتفكير ، بل سرعان ما أخترت البحث الذي طالما فكرت فيه وأعددت له العدة من قبل ، وهو « ضوابط